

المكون الرحلي في رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمريّة"

لعبد الرحيم لحبيبي – أبعاد الفنية والمعرفية-

The nomadic component in the novel "The Alienation of Al- Abdi, famous for the birth of Al- Hamriyah " by Abd Al- Rahim Lahbib – its artistic and cognitive dimensions

ط.د سامية بلعابية *

أ.د سميرة قروي *

تاريخ الإرسال: 2023/06/25	تاريخ القبول: 2023/12/06	تاريخ النشر: 2024/12/20
---------------------------	--------------------------	-------------------------

الملخص:

عرفت الرواية العربية المعاصرة وهي تخوض غمار التجريب تحولات جذرية سواء على المستوى الموضوعاتي أم على المستوى الشكلي والجمالي، وذلك بانفتاحها على مختلف الأجناس الأدبية وتفاعلها معها. ومن هنا تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن ظاهرة التداخل الأجناسي وتمثلاتها في النص الروائي المنفتح على أدب الرحلة، لرصد ملامح هذا التداخل وآليات اشتغال المكونات الرحلية فيه، متخذة من رواية "العبدى المشهور بولد الحمريّة" للروائي عبد الرحيم لحبيبي عينة للدراسة والمقاربة بكونها من أبرز الروايات التي بلغت أعلى مستويات التجريب باستثمارها المكونات الرحلية، مما أسهم في تعميق أبعادها الإنسانية والمعرفية وحقق شعريتها وجمالياتها.

الكلمات المفتاحية: الرواية المعاصرة، أدب الرحلة، التداخل الأجناسي، البعد الجمالي، البعد المعرفي.

* جامعة عباس لغرور. خنشلة (الجزائر) samia.belaiba@univ-khenchela.dz

* جامعة عباس لغرور. خنشلة (الجزائر) samira.garoui@univ-khenchela.dz

Abstract:

The contemporary Arabic novel, while undergoing experimentation, witnessed radical transformations, whether on the thematic level or on the formal and aesthetic level. This is due to its openness to various literary genres and its interaction with them. Who among us seeks this study to reveal the phenomenon of gender overlap and its representations in the novelist text open to travel literature, to monitor the features of the overlap and the mechanisms of functioning of the nomadic components in it, taken from the novel "Al-Abdis Alienation famous for the birth of Al-Hamriya" by the novelist Abd Al-Rahim Lahbib as a sample for study and approach as one of the prominent novels Which reached high levels of experimentation by investing the nomadic components, which contributed to deepening its human and cognitive dimensions and achieved its poetic and aesthetic.

Key words contemporary novel, travel literature, gender overlap, aesthetic dimension, cognitive dimension.

المؤلف المرسل: سامية بلعابية samia.belaiba@univ-khenchela.dz

*** **

مقدمة:

إن الرواية العربية بالرغم من تأخر ظهورها وحداثة نشأتها مقارنة بنظيرتها الغربية، إلا أنها قد بلغت أعلى درجات النضوج الفني ببنية سردية وأدوات فنية لا تعرف الاستقرار أو الثبات على شكل معين أو قالب محدد، إذ ظلت في بحث دائم عن آفاق إبداعية جديدة ومغايرة، لتواكب خصوصيات كل مرحلة ولترقى إلى ذائقة قرائها، وذلك لكونها أكثر الأجناس الأدبية مرونة وقدرة على استيعاب متغيرات وتحولات كل عصر.

فقد عرفت الرواية العربية تحولات جذرية سواء على المستوى الموضوعاتي أم على المستوى الشكلي والجمالي، وما تزال في تطور مستمر يطرح إشكاليات التجريب والمغامرة محاولة تجديد لغتها وأدواتها الأسلوبية وآلياتها الفنية، وتحديث مكوناتها البنائية، باستعارة ما تتيحه الأجناس الأدبية الأخرى من تقنيات وآليات أسلوبية وفنية

ومن مكونات بنائية، وهو ما مكّنها من تجاوز تقاليد النوع الروائي وإحداث صدام وخلخلة داخل الحدود الفاصلة والمؤسسة لنقاء الجنس الأدبي، الأمر الذي قوض خارطة الأجناس الأدبية التي وضعت معالمها نظرية الأجناس الأدبية، لينحصر بذلك دورها معلنا عن ميلاد ظاهرة التداخل الأجناسي.

وقد أفادت الرواية العربية المعاصرة من هذه الظاهرة، فانفتحت على مختلف أشكال الإبداع الإنساني -الأدبي وغير الأدبي- فلم يقتصر تفاعلها عند حدود جنس بعينه، بل استثمرت مختلف الإمكانيات والآليات البنائية والأسلوبية والفنية التي تتيحها الأجناس الأخرى، ويعد أدب الرحلة من أبرز الأجناس المتفاعلة مع الرواية نظرا لاشتراكهما في كونهما جنسان سرديان، وهو ما تمخض عنه ميلاد رواية رحلية يتضافر ويتداخل في تكوينها وبنائها الروائي والرحلي، ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لتستجلي مظاهر هذا التداخل وأثره في واحدة من الروايات الرحلية، وهي رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة" للروائي المغربي عبد الرحيم لحبيبي، وذلك بناء على عدة فرضيات، منها:

- ما هي تجليات النص الرحلي في رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة"؟
- وما هي خصوصيات الرواية الرحلية؟

وذلك للتمكن من الإجابة عن الإشكالية الأساسية المتمثلة في:

- كيف حققت الرواية الرحلية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة" شعريتها؟

وقد تم الاعتماد في ذلك على المنهجين البنيوي والموضوعاتي والاستناد إلى عدة آليات منها: الوصف والتحليل.

1. مفهوم أدب الرحلة:

يُعرف أدب الرحلة تعددا وتنوعا مفاهيميا كبيرا، نظرا لطبيعته المنفتحة التي تزوج بين ما هو أدبي وغير أدبي؛ إذ يجمع بين السرد بمكوناته الأدبية، وبين مجالات إنسانية ومعرفية متعددة: كالتاريخ والجغرافيا والإثنوغرافيا، ويقوم من حيث هو متن حكاوي أو قصة على السفر والرحلة الواقعية التي قام بها الرحالة، أما من حيث كونه

مبنى حكايا أو خطابا فيتمثل سرديا من خلال ما يحكيه الرحالة/ السارد من أحداث ووقائع رحلته.

ويُعرّف أدب الرحلة عموما بأنه "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"¹، فهو جنس أدبي يكتسب سمة الأدبية من أسلوبه القصصي القائم على السرد الذي لا ينفصل عن الوصف، ذلك أن أول ما يقع عليه نظر الرحالة أثناء رحلته هو البلاد بطبيعتها ومناظرها وسكانها وعمرانها المختلف، ولذلك فإن الرحالة قد اعتمدوا على الوصف في تدوين وكتابة رحلاتهم، وعُدّ بذلك الوصف من الخصوصيات التي تركز لأدبية الرحلة بالإضافة إلى السرد، وهو ما يحول "الرحلة من كونها فعلا متجسدا في الزمان عبر الانتقال من مكان إلى آخر مع حدوث أفعال ووقائع، إلى الرحلة باعتبارها فعلا محكيا يختزل تجربة الفعل السابق ويدونه في شكل سرود بضمير المتكلم"²، وهذا يعني أن أدب الرحلة يقوم على ما اختزنه الذاكرة من أحداث ومشاهدات، وهنا تتدخل المخيلة في صناعة أدب الرحلة بكونه عملا فنيا يمتزج فيه الواقع بالمخيل، ينهض فيه الخيال بمهمة ملء الفجوات والفراغات التي يستعصي على الذاكرة سدها، وهو ما يحقق لها أدبيتها ويحول دون أن تقف عند حدود التسجيل والتدوين فقط.

وبذلك يمكن القول إن أدب الرحلة سرد استذكاري يملك من المكونات السردية ما يؤهله لأن يكون جنسا أدبيا سرديا بامتياز، يشترك مع الأجناس السردية الأخرى كالرواية والقصة في كثير من العناصر والمكونات، ويختلف عنها في الآن نفسه من خلال متنه الحكائي الذي يؤطره عنصر السفر والترحال.

وهو ما يؤسس لتفرد الفن الرحلي وتميزه عن باقي فنون الأدب السردية، فالنص الرحلي من حيث هو مضمون أو قصة يقوم على متتالية من الأحداث التي تحققت فعليا أثناء سفر الرحالة وانتقاله من مكان إلى آخر، والتي تعرض ما صادفه الرحالة وما اعترضه في طريقه من خصائص ومميزات عصره، ووصف للبلدان التي زارها ومظاهرها

الطبيعية من مناظر ومناخ ومسالك وطرق، ونقل لأخبار الشعوب التي مر بها وعاداتها وتقاليدها وأوضاعها الاجتماعية وحتى ثقافتها، وبذلك عد النص الرحلي مزيجاً من "المعلومات بالمغامرات، والواقع بالأساطير، ذات الكاتب ومشاهداته، التجربة والحكمة مع الخيال، السحر مع الغرائب والعجائب"³، وهو ما جعله نصاً هجيناً يجمع بين الأدب وشتى حقول المعرفة.

وانفتاح رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة" على هذا الجنس الأدبي، واستثمارها خصوصياته ومكوناته البنائية منحها سمة الموسوعية وجعلها تربة خصبة لتفاعل مختلف المعارف والعلوم، وصيغها ببعد جمالي فني ينبع من متعة السفر والمغامرة، وما يولدانه من تشويق وعجائبية.

2. تجليات النص الرحلي في "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة":

انكأ عبد الرحيم لحبيبي في روايته هذه على رحلة قام بها بطل الرواية العبدى، وكُتبت أحداثها في مخطوطة عثر عليها طالب جامعي وهو الشخصية التي يمثلها السارد الأول، لتكون هذه المخطوطة/ الرحلة المتن الحكائي أو القصة التي تقوم عليها الرواية؛ إذ تتحدث هذه المخطوطة عن رحلة قادت العبدى إلى مكة والمدينة للحج والزيارة، وقد اغتنمها لزيارة أماكن أخرى وبخاصة مصر وجامعها الأزهر الشريف للتزود بالعلم والمعرفة⁴، وهو ما جعل هذا النص الروائي مزدوج الخطاب.

إنه نص متعدد وكولاج للسرد والأخبار والمرويات، يجمع بين المعرفة والأدبية، فيتضمن معارف ومعلومات بالدرجة الأولى، ويفسح المجال بوصفه نابعا من الذاكرة عن تجربة مضت للخيال والسرد والمرويات لتلج عالمه⁵، وبهذا فقد انفتحت هذه الرواية على أدب الرحلات فاستعارت أدواته الأسلوبية والفنية: كالسرد بضمير المتكلم، التركيز على الوصف واحتلاله جزءاً كبيراً من مساحته النصية، كما انبنت وفق هندسته المعمارية ببناء يتأسس على التضمين الذي توطّره "الحكاية الإطار وما تتضمنه من حكايات صغرى وكلها مستوحاة...عن طريق التماس مع المكان ومفاجآته، يتعلق الأمر بالكيفية التي يتدخل بها المكان في إنتاج هذا السرد، إذ يتطور هذا الأخير بمكابدة الرحالة وتحمله مشاق الطريق (قطاع الطرق، الظروف المناخية الصعبة...) وهو ما

سميناه بالبعد المغامراتي"⁶، وبذلك تتمظهر العناصر والمكونات الرحلية في هذه الرواية من خلال ثلاثة مستويات، هي: البناء، التقنيات، الآليات وعناصر البنية السردية، المضمنون.

1.2 البناء الرحلي:

لقد خرجت رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة" عن البناء الروائي المؤلف باستثمارها بناء النص الرحلي، فهو نص "ينبني باعتباره محكيا عن سفارة (رحلة) تؤسس لفعل الحكاية جوار الخطاب"⁷، وبذلك فقد انبنت في شكل مركب يتألف من ثلاثة قصص ترتبط فيما بينها عن طريق التضمين؛ أي إدخال قصة في قصة أخرى، وهذا النوع من أنواع التأليف القصصي يقوم على علاقة التبعية⁸، فالقصة المتعلقة بالرحلة أو محكي السفر تندرج ضمن القصة المؤطرة لها والتي تحوي استعدادات السفر والرحلة مع بيان دوافعها وغاياتها، والتي تندرج بدورها داخل القصة الأولى التي تؤطرهما معا، وبذلك يتم الانتقال من القصة الأولى إلى الثانية المؤطرة للسفر ثم إلى محكي السفر وهو بؤرة السرد في الرواية.

فيبدأ السرد مع القصة الأولى التي تحمل عنوان: (مقدمة قد تكون المدخل وقد تشبه الخاتمة؟!)، وهي قصة عثور طالب جامعي على أجزاء من مخطوطة مجهولة المؤلف ورغبته في تحقيقها تحقيقا علميا أكاديميا، وهو ما يستدعي منه البحث والتنقيب، وفي ذلك يقول الطالب/ السارد: "لم أجد عند أحد ممن التقيتهم أو كاتبهم...خبرا موثقا أو معلومة مفيدة حول سيرة المؤلف المجهول، حتى كدت -أنا نفسي- أن أنكر أمر وجوده، وأنه من صنع الخيال، لكن إيماني بأنه وجد ذات يوم، وأنه عاش حياة مضطربة وكتب مخطوطة فريدة، لا يعادله إلا إيماني بوجودي وأنا أمسك بالمخطوطة وأتابع على صفحاتها رحلته في الحياة وتجوّاله بين الأقطار وأحلامه التي لم تتحقق"⁹، إذ توثق هذه المخطوطة لرحلة قام بها صاحبها في القرن التاسع عشر، وتبين تميزها واختلافها عن رحلات تلك الفترة، فيقول الطالب/ السارد: "وغير خاف أن الكتابات الرحلية الحجية استمرت خلال القرن التاسع عشر في مقاربتها لإشكالية النهضة العربية ومعالجة قضية الإسلام والحداثة، في تقديم صورة الصدام الحضاري

مع أوربا الصناعية على نمط قواعد شكلية ماضوية منحنطة أو في شكل قياسات واستدلالات تمثيلية لتبرير الهزيمة الحضارية أمام العدو الكافر... في مقابل ذلك يقدم نص العبدى صورة مغايرة للعالم وموقفا إنسانيا وحضاريا يمزج بين الذات والآخر ويسائل الماضي كما يسائل الحاضر والمستقبل ويضع الحقيقة موضع الشك، والظن محل اليقين، باحثا عن أفق جديد يتصالح فيه الإنسان مع ذاته وعصره وتاريخه¹⁰، ويشكل هذا الوصف انعطافة ونقطة تحول وانتقال إلى القصة الثانية المتمثلة في مضمون المخطوطة التي تعد الرابط بين القصتين الأولى والثانية، هذه الأخيرة التي تحمل عنوان: (المخطوطة الفريدة أو مخطوطة سوق العفاريات تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة).

تتضمن هذه القصة هي الأخرى قصتين تندرج إحدهما ضمن الأخرى، وفيهما يستعاض عن السارد الأول -الطالب الجامعي- بالسارد الثاني -الرحالة العبدى- فيستهل الرحالة العبدى هذه المخطوطة الرحلة بالقصة المؤطرة لرحلته تحت مسمى: (كتاب الخروج)، والتي تحكي دوافع رحلته وأهدافها، واستعداداته لها، وهذا ما يتجسد في قوله: "خرجت راحلا بعد إشارة من شيخنا الجليل جيدة بن عبد الله بعد أن كنت قد خلّصت ما قدرني الله عليه من علم جليل في حفظ القرآن الكريم وحسن تلاوته وتجويده، وما تيسر من الحديث النبوي الشريف وبعض مسائل متفرقة في علم التوقيت والمواريث والحساب وتقويم الأرض. أخذني... من يدي... اتجه بي نحو البحر...وقفنا على الحافة، رفع يده الرفيعة والمسبحة ملتفة بمعصمه وأشار بسبابته نحو البحر. صمت وقتا قصيرا وقال: هذا البحر يفصلنا عن بلاد النصرارى ولا يمنعم من الوصول إلينا متى شأؤوا بسبب ضعفنا وتخاذلنا وتفرقنا شعوبا وقبائل، ووراء هذا البحر علوم وفنون وصنائع ما أحوجنا إليها لو أحسنا تعلمها وإتقانها كما فعل أجدادنا مع الفرس والهند واليونان وغيرهم...عليك يا ولدي بالرحيل...ومتابعة التحصيل"¹¹، ليتم الانتقال بعدها دون حدود فاصلة دقيقة بين القصتين فالانتقال فيها مخفي¹² إلى محكي السفر الذي يشكل بؤرة السرد في هذه الرواية، والذي يرتبط مع القصة المؤطرة له بوساطة شخصية الرحالة سارد القصتين وبطلهما.

وبذلك فقد تجاوزت رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة" البناء الروائى التقليدى، بمعمار نصي أقرب إلى الفن الرحلى منه إلى الرواية لولا أن مؤلفها وضعها تحت مسمى الرواية.

2.2 تقنيات وعناصر النص الرحلى:

تستعير رواية "تغريبة العبدى" كما سبق ورأينا بناء النص الرحلى فى تصميم وهندسة بنائها النصي، وبذلك فهي تستمد منه سماته وخصوصياته وكذا تقنياته وآلياته الأسلوبية والفنية، وبما أن أدب الرحلات هو "ذلك النثر الذى يصف رحلة -أو رحلات- واقعية قام بها رجال متميز، موازنا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل متميزين"¹³، فإن ذلك يستلزم أن تحمل هذه الرواية بعضا من هذه المواصفات أو أغلبها، وبذلك تستحيل رواية تغريبة العبدى إلى كونها تسجيلا ذاتيا لتجربة السفر والترحال التى عايشها الرحالة، وهذا ما يجسده قول الرحالة/ السارد: "تجشمت أسفارا بعيدة أبعد من آمالي، ومشيت فى مناكب الأرض أطوي المسافات والمراحل، وأجتاز الوهاد والجبال، ولا زاد إلا ما صادت النبال والحراب، وما عاف وحش الصحراء واليباب، وكمر مرة فقدت الناقة والجمال، فلم أجد مطية إلا الخف والنعل والحفاء على الرضاء والرمل. فارقت الأحباب وهجرت مرابع الصبا والشباب"¹⁴.

وبهذا فهي تعتمد السرد بضمير المتكلم، فيطابق السارد البطل، ويكون الخطاب فيها خطابا ذاتيا "ينسبه الرحالة إلى نفسه، عن طريق التجربة والمكابدة...السارد مشارك فعلي، وهو المهيمن، وهو خطاب شخصي"¹⁵، وفي هذه الحالة يندمج السارد مع الشخصية الروائية الرئيسة¹⁶، فهيمن على الرواية نمط واحد من السرد يكون فيه السارد مثلي القصة بطل حكايته¹⁷، وهذا من تمظهرات الانفتاح على النص الرحلى، ففن الرحلة "من أولى الأشكال التعبيرية التى استعملت فيها الكتابة بضمير الأنا دون تحرج"¹⁸، وهو ما يعدل بهذه الرواية إلى أن تكون سردا استذكاريًا فيه يستعيد الرحالة/ السارد أحداث رحلته ووقائعها، بكونه مركز اشتغالها ومحورا لتطور أحداثها بحركته الانتقالية فى المكان والزمان.

ونظرا للدور الذي يضطلع به المكان في تكوين أدب الرحلات نجده في هذه الرواية أيضا ينهض بدور فعال في التأثيث للحدث الروائي، فالنزعة المكانية هي المميز للرواية الرحلية التي تطفئ على الزمان وتجرده من دلالاته الجوهرية، حتى إن الزمان البيولوجي يرتبط بعمر البطل ذاته، وكذا انتقالاته في المكان¹⁹، وذلك لأن "الانتقال من مكان لآخر هو العنصر الأساسي والدعامة التي تؤطر الأحداث والأفعال"²⁰، وبهذا يتحول المكان إلى فضاء يستوعب كل العناصر الروائية ويتحكم في شبكة العلاقات القائمة بينها.

وهذا ما يتمثل في قول الرحالة/ السارد: "كم كان يحز في قلبي منظرنا نحن الطلبة القادمين من البوادي والأقاليم أمام هؤلاء الطلبة الفاسيين، فما يُعطى لهم من المودة والتقدير والاعتبار لا ينالنا منه مثقال ذرة...كنا نعلم علم اليقين أنهم يعدونهم للمناصب السامية، ونحن لأعمال العدول والوعظ وإمامة المصلين بالوداوير والمداشر، طموحي بعرض السماوات والأرض، ولن أجد في بلدي ما أبحث عنه، لذلك أزمعت على الرحيل إلى حيث الينابيع الأولى لأزيد علما وتفقه...يومها سأعود فاتحا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الصراط المستقيم فيعلو شأني ويتبعني من أثقلت كواهلهم الجبايات والمكوس، وأثخنت أجسادهم وأبدان نساءهم وأطفالهم الأمراض"²¹، إذ تتضح من خلال هذا المقطع أهمية المكان، فهو الدافع الأساسي الذي حمل السارد على الرحيل والسفر، فلو توفر المكان على ما يلي احتياجات العبدى وطموحه لما اضطر إلى مغادرته والرحيل عنه لتحقيق ذلك.

ومن هذا المنطلق يصبح المكان عنصرا فاعلا في بناء هذه الرواية، والمحرك الفعلي لباقي مكونات وعناصر بنيتها السردية من أحداث وشخصيات وزمان، وهذه النزعة المكانية تتجاوز "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة" التقليد الروائي الذي يُظهر المكان على أنه مجرد ديكور لاحتضان باقي المكونات.

ويرتبط المكان ارتباطا وثيقا بالوصف، وبه يتمثل روائيا شأنه في ذلك كشأن باقي العناصر السردية الروائية، فلا يمكن تصور سرد خال من الوصف، "فكل سرد إلا ويتضمن في الواقع بنسب متفاوتة جدا، مع أنه متنوع وشديد التركيب، من جهة أولى عروضا لأفعال وأحداث هي التي تشكل السرد بمعناه الخالص؛ ويتضمن من جهة ثانية

عروضا لأشياء ولشخص هو نتاج ما ندعوه اليوم وصفا²²، وهذا يعني أنه لا يمكن أن يوجد نص روائي يغيب عنه الوصف، إلا أن ما يميز رواية "تغريبة العبيد المشهور بولد الحمرة" هو هيمنة الوصف عليها واحتلاله حيزا نصيا واسعا من مساحتها النصية، في مقابل انحسار مساحة السرد.

فبفعل انفتاحها على فن الرحلة اعتمدت الوصف أدواتها الأسلوبية؛ إذ "يعد الوصف وسيلة من وسائل التقريب داخل الرحلة، ويعمل على تشخيص المشاهد والصور والأحوال المرئية المتعلقة بالآخر المختلف، وتبين كذلك مدى تفاعل الرحالة معها، إلى جانب دور آخروهو تهويل المغامرة من خلال الأوضاع التي وصل إليها"²³ نتيجة ما يعترضه في طريقه، وهو ما منحها بعدا جماليا ينبع مما يتمخض عن الوصف من أثر فني ومتعة.

ومن المقاطع الروائية التي يتجسد فيها ذلك وهي كثيرة قول الرحالة/ السارد: "كانت رحلتي آمنة سالمة بصحبة الأعراب والحجاج العائدين إلى ديارهم حتى وصولنا مدينة الإسكندرية العامرة...مدينة الإسكندر ذي القرنين، الشامخة بطلعتها البهية على البحر الصغير، مستطيلة الخطّة، ذات أربعة أبواب موزعة بدقة وإتقان، باب البحرية المُفضي إلى المرسى القديم، وباب رشيد شرقا من طريق النيل، وباب السدرة جنوبا وهو المؤدي إلى بلاد المغرب أو بلاد البربر كما يسمونها هنا، وباب رابع في الجنوب يؤدي إلى المقبرة. وهي مدينة مسوّرة، وعليها أبراج وحصون...أرضها رملية لا تصلح لزراعة أو غرس. أما خارج أسوارها وعلى مبعدة عدة أميال فتوجد بناءات قديمة يعدونها من عجائب الدنيا، وأشهرها عمود الصواري، وهو في غاية الضخامة والارتفاع..."²⁴، والملاحظ أن "الوصف المتسع والمفصل يتبدى هنا بمثابة وقفة أو استراحة في مضمار السرد...وله دور جمالي خالص مثل دور النحت في الصروح"²⁵، فمعه يتعطل السرد وينعدم، ويغوص الوصف في تجسيد وتصوير تفاصيل الطبيعة بمناظرها، والمدن بعمرانها وشوارعها وطرقاتها، والشعوب بعاداتها وتقاليدها وهو ما عدل بهذه الرواية نحو عوالم اللامألوف والعجائبي.

وبهذه الخصوصيات والمفارقات حققت "تغريبة العبدى" شعريتها، واكتست حلة رحلية سواء من حيث عناصرها السردية وآلياتها وتقنياتها الأسلوبية أم من حيث مضامينها.

2.3 المضمون الرحلي:

تقوم رواية تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة على موضوعة الترحال والسفر، فهي رواية رحلية بامتياز يتجسد مضمونها الروائي من خلال الرحلة التي قام بها بطلها العبدى من مدينة فاس متجها إلى مكة مروراً بمصر، وبذلك فقد عالجت أغلب الإشكاليات التي يطرحها أدب الرحلة في جميع مجالات وحقول المعرفة، مما وسمها بالتشعب والموسوعية بمضامينها التاريخية، الجغرافية، الإثنوغرافية، وكذا العجائبية، وهذا يتزاح ويتلاقح البعد الفني الجمالي في هذه الرواية بالمعرفة التي تتنوع أبعادها بتعدد موضوعات الرواية.

2.3.1 البعد التاريخي والجغرافي:

ترتبط رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة" ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ، وذلك بوصفها سفراً وترحالاً في المكان والزمان، فالرحالة العبدى وهو يسرد انتقالاته من مكان إلى آخر "يقدم -آلياً- محكياً تسجيلياً عبارة عن مادة تاريخية، خادماً بذلك المعرفة من حيث يشعر أو لا يشعر"²⁶، وذلك من منطلق ذاتي ومن خلال ما يعرض من ميزات وخصائص عصره، وكذا من أخبار الشعوب التي مر بها، ومظاهر حياتهم التي تؤرخ كلها لمرحلة تاريخية معينة، ومن أمثلة ذلك ما تضمنته من معلومات عن الاحتلال الأوربي للبلاد العربية، فيقول الرحالة: "كلكم على علم بما صار في البلاد العربية والإسلامية، وعلى وجه الخصوص القطر المصري بعد حملة نابليون بونابرت العسكرية وما كان من أخذ ورد وحرب وسلام ومقاومة واحتلال، حتى خرج الفرنسية من مصر ليدخلها بعد ذلك العثمانيون والإنجليز، والدولة الفرنسية إن كانت لم تفلح في احتلال مصر، فقد نجحت في احتلال الجزائر وتونس وبلاد إسلامية وإفريقية، وهي قاب قوسين أو أكثر من احتلال المغرب"²⁷.

هذا كما نجده قد اتكأ على نقل مشاهداته من مناظر طبيعية ومن عمران وطرق ومساكن، وبذلك فهو يقدم للقارئ مادة جغرافية عن المناطق التي زارها ومر بها، ويضيء له جوانب كانت مظلمة عن هذه المنطقة أو تلك، وذلك بما تحويه الرواية من "مادة وفيرة تهتم المؤرخ والجغرافي، وعالم الاجتماع، والاقتصادي ومؤرخي الأدب والأديان والأساطير"²⁸، وهذا يحتل البعد المعرفي مكانة هامة في عوالم الرواية، غير أن هذا الحضور المتميز للبعدين التاريخي والجغرافي فيها لا يلغي أدبيتها ولا يقلل من بعدها الجمالي الفني، بل تندمج الأبعاد وتتكامل مكونة رواية هجينة تحقق شعريتها بتلاقح الفني والمعرفي.

2. 3. 2 البعد الإثنوغرافي:

تقدم لنا رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمريّة" مادة إثنوغرافية بما حوته من وصف دقيق لثقافات المجتمعات الإنسانية التي صادفها الرحالة السارد في سفره، وبما تضمنته من وصف للعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية والمعيشية للشعوب؛ إذ تعرض لمختلف الأنشطة والممارسات التي تمارسها هذه الشعوب من الأكل إلى اللغة إلى اللباس إلى السلوكيات والتصرفات إلى المعاملات والمعتقدات في إطار المختلف.

فالرحالة يرصد اللامألوف وهو الذي يسترعي انتباهه واهتمامه، لينقله للقارئ في كثير من الأحيان من خلال مقارنته بما هو مألوف لديه، وبذلك تصبح هذه الرواية حقلاً إثنوغرافياً ومقارنياً بامتياز، ومن المقاطع التي تصور ذلك قول السارد: "ويغلب على أهل الإسكندرية الأقباط المسيحيون واليعاقبة خاصة، وجلهم تجار وصناع كانوا إلى وقت قريب يؤدون الجزية إلى أمراء المماليك وحكام الباب العالي بمصر. لهم كنيسة عظيمة جليلة، يقال إن رفات أحد القديسين الكبار مدفوناً بها، وبوسط المدينة ضريح يقُدّسه المسلمون ويجلّونه ويوقدون الأنوار حوله صباح مساء يقال إنه قبر الإسكندر الكبير المذكور في القرآن الكريم (نبيا وملكا)...سكانها مطبوعون على السماحة والكرم والبشاشة في وجه الغرباء، مثلهم في ذلك مثل جميع سكان السواحل والثغور البحرية، يتكلمون أكثر من لغة ويرطنون بكلام الأجانب، ذكرني ذلك بأسفي، مدينتي البعيدة"²⁹،

وبذلك يقدم صورة عن هذا الآخر المختلف عن الأنا بلغته وسلوكاته وممارساته وعاداته وتقاليده وثقافته.

وهيمنة الآخر تعكس بشكل أو بآخر الحضور القوي للأنا في مقابل هذا الآخر الذي تنبني صورته من "منظور رؤية الرحالة - الراوي-...أو من طرف هذا الآخر نفسه، وباستحضار صوته عبر الحوار أو نقلا في السياق على لسان الرحالة الراوي"³⁰، وهو ما منح الرواية طابعا مقارنيا، يلج بها إلى مجال علم الصورة أو الصور ولوجيا.

2. 3. 3 البعد العجائبي:

تمتزج المعرفة في رواية "تغريبة العبدى" بالجمالي، فمن التاريخي والجغرافي والإثنوغرافي تلج بنا إلى عوالم العجائبية وما تولده من جماليات؛ إذ تنهض الرواية على خطاب المختلف والغريب والخارق للمألوف بوصفها رحلة يبتعد فيها الرحالة عن دياره، أين يفقد كل أليف، ويأتي دائما بالجديد فأشياؤه جديدة يتماس معها لأول مرة، ويبدو له كل شيء غريب عجيب³¹، فالأماكن لا يعرفها والناس الذين يصادفهم يراهم لأول مرة، وهو ما يحدث لديه صدمة ودهشة تجعله ينظر إلى كل ما حوله على أنه عجيب خارق، وبهذا يشكل العجائبي ظاهرة متميزة في هذه الرواية مما يضيف عليها متعة فنية تنبع مما يتولد عنه من تشويق.

وقد مست هذه الظاهرة مختلف العناصر ومكونات البنية السردية الروائية، فمن العناصر العجائبية نجد الشخصيات، مثل الأولياء الصالحين وأصحاب الكرامات والخوارق³²، وكذا الأشياء والأحداث، كأحداث البحث عن الخيئة وكنوز الأولين وذخائر الأجداد المدفونة والمحروسة بالطلاسم، التي استدعى البحث عنها تعاويذ سحرية والتي يبطل إلى جانبها كل سحر أو خرز أو جدول³³، بالإضافة إلى الأماكن التي خرقت كل مألوف لدى الرحالة، وبخاصة الصحراء التي أثارت دهشته بخباياها التي لا يمكن كشف حقيقتها بأي حال، والمعتقدات هي الأخرى شكلت لديه التوتر والحيرة، ومن الأمثلة التي يتجسد فيها ذلك قوله: "وكان مما يثير العجب تبجيلهم للموت وتقديرهم للأموات، فقد كانوا يعتقدون بحياة أخرى بعد الموت، لا كما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فالحياة عندهم بعد الموت لا حساب ولا قيامة ولا صراط

فيها، ولا جنة ولا جحيما، بل حياة آدمية أشبه بحياتهم ولكن في حلة حسنة بديعة، لا تعب فيها ولا ضحك...³⁴، وهذا البعد العجائبي تتجاوز الرواية الواقع والمألوف إلى عوالم خيالية تجعل القارئ يغوص في أعماقها لكشف خباياها.

وهو ما يصنف رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمريّة" في خانة النصوص الروائية الهجينة التي تمتع خصوصياتها ومواصفاتها من تفاعل وتراسل الروائي والرحلي، وتكرس لشعريتها بتزاوج واندماج الجمالي بالمعرفي، ومن هنا يمكن عدها من النصوص البارزة التي تؤسس لظاهرة التداخل الأجناسي.

3. خاتمة:

تقوم هذه الدراسة على مقارنة "رواية تغريبة العبدى المشهور بولد الحمريّة" للروائي المغربي عبد الرحيم لحبيبي، والتي تعد من الروايات المتداخلة أجناسيا، بانفتاحها على أدب الرحلات واستثمارها مختلف مقوماته سواء ما تعلق منها بالبناء وعناصره أم الأسلوب وآلياته أم المضمون وموضوعاته، ومن هنا رصدت الدراسة تجليات هذا التداخل وتمظهراته في النص الروائي تغريبة العبدى من بنائها القائم على التضمين، الذي ينهض على السرد بضمير المتكلم والذي يطابق فيه السارد البطل، ويعتمد على الوصف الذي تنحسر معه مساحة السرد، مما يسهم في حضور المكان المتميز بكونه عنصرا فاعلا ومتحكما في باقي المكونات السردية، وصولا إلى مضمونها المتفرد الذي يعالج عدة مجالات معرفية كالتاريخ والجغرافيا والإثنوغرافيا، إضافة إلى ما تزخر به من عجائبية، وهو ما سمح بالتوصل إلى عدة نتائج من أبرزها:

-تسجل رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمريّة" فرادتها وتميزها بخروجها عن النموذج البنائي الروائي المألوف ببنية متمردة هجينة ومنفتحة على أدب الرحلات.

- تتجاوز هذه الرواية مبدأ نقاء الجنس الأدبي بخروجها عن تقاليد منظومة الجنس الروائي التي أنتجت لتستجيب بشكل أو بآخر لمقولة الكتابة اللانوعية ومكرسة لظاهرة التداخل الأجناسي.

- تشكل تغريبة العبدى نصا روائيا مرتحلا سواء من حيث تصنيفه الأجناسى الذى يتجاوز حدود الروائى لىلامس تخوم الرحلى أم من حيث عوالمه الروائية القائمة على السفر والترحال.

-تحقق رواية "تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة" شعريتها بتلاقح الجمالى والمعرفى فيها.

-تكرس رواية تغريبة العبدى لميلاد نوع روائى جديد يجمع بين الروائى والرحلى، أو ما يمكن تسميته بالرواية الرحلية.

- إن هذه الرواية من النصوص التى تتخطى مقاربتها المنهج الواحد وتستدعى تعددا منهجيا بل لابد لقراءتها من استثمار ما توصلت إليه الدراسات المعرفية لتتكامل مناهجها فى مقاربتها وذلك للكشف عن آليات اشتغال المعرفة فيه.

- يجمع هذا النص الروائى بين الروائى والرحلى وبين الأدب والمعرفة وهو ما يجعله يرفض التقولب ضمن قالب أدبى بعينه قابلا للدراسة والمقاربة بشتى مناهج النقد الأدبى.

4. قائمة المراجع والمصادر:

- بوشعيب الساورى، الرحلة والنسق دراسة فى إنتاج النص الرحلى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، 2007.
- تزفيطان تودروف، مقولات السرد الأدبى، تر: الحسن سحبان وفؤاد صفا، كتاب طرائق تحليل السرد الأدبى، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، الرباط، 1992.
- جيار جنيت، حدود السرد، تر: بنعيسى بوحماله، كتاب طرائق تحليل السرد الأدبى، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، الرباط، 1992.
- جيار جنيت، خطاب الحكاية بحث فى المنهج، تر: محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، المغرب، 1997.
- شعيب حليفى، الرحلة فى الأدب العربى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، دط، مصر، 2002.

- عبد الرحيم لحبيبي، تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة، إفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 2014.
- عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث "مكونات السرد"، دار هومة، ط1، الجزائر، 2014.
- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربى، مكتبة الدار العربىة للكتاب، ط2، القاهرة، 2002.
- فاطمة بوطبسو، أدبية الخطاب فى رحلة نور الأندلس لأمين الريحاني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير فى الأدب الحديث شعبة أدب الرحلة، إشراف الدكتور عبد الله الحمادى، جامعة منتورى، قسنطينة، الجزائر، 2010/ 2011.
- مجدى وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربىة فى اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 1984.
- ميخائيل باختين، النظرية الجمالية المؤلف والبطل فى الفعل الجمالى، تر: عقبة زيدان، دار نينوى، ط1، دمشق، 2017.
- ناصر عبد الرزاق الموائى، الرحلة فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، مكتبة الوفاء، ط1، القاهرة، 1995.

*** **

5. الهوامش:

- ¹ مجدى وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربىة فى اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 1984، ص17.
- ² فاطمة بوطبسو، أدبية الخطاب فى رحلة نور الأندلس لأمين الريحاني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير فى الأدب الحديث شعبة أدب الرحلة، إشراف الدكتور عبد الله الحمادى، جامعة منتورى، قسنطينة، الجزائر، 2010/ 2011، ص15.
- ³ فؤاد قنديل، أدب الرحلة فى التراث العربى، مكتبة الدار العربىة للكتاب، ط2، القاهرة، 2002، ص13.
- ⁴ ينظر عبد الرحيم لحبيبي، تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة، إفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 2014، ص27.
- ⁵ ينظر بوشعيب الساورى، الرحلة والنسق دراسة فى إنتاج النص الرحلى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، 2007، ص203.
- ⁶ المرجع نفسه، ص ن.

- ⁷ شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، دط، مصر، 2002، ص7.
- ⁸ ينظر تزفيطان تودروف، مقولات السرد الأدبي، تر: الحسن سبحان وفؤاد صفا، كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، الرباط، 1992، ص56.
- ⁹ عبد الرحيم لحبيبي، تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة، ص18.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ص29.
- ¹¹ المصدر نفسه، ص32، ص33.
- ¹² ينظر تزفيطان تودروف، مقولات السرد الأدبي، ص57.
- ¹³ ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الوفاء، ط1، القاهرة، 1995، ص41.
- ¹⁴ عبد الرحيم لحبيبي، تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة، ص31.
- ¹⁵ بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق دراسة في إنتاج النص الرحلي، ص204.
- ¹⁶ ينظر تزفيطان تودروف، مقولات السرد الأدبي، ص65.
- ¹⁷ ينظر جبرار جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، تر: محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، المغرب، 1997، ص225.
- ¹⁸ شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص7.
- ¹⁹ ينظر ميخائيل باختين، النظرية الجمالية المؤلف والبطل في الفعل الجمالي، تر: عقبة زيدان، دار نينوى، ط1، دمشق، 2017، ص288.
- ²⁰ شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص17.
- ²¹ عبد الرحيم لحبيبي، تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة، ص34، ص35.
- ²² جبرار جنيت، حدود السرد، تر: بنعيسى بوحمال، كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، ص75.
- ²³ بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق دراسة في إنتاج النص الرحلي، ص230.
- ²⁴ عبد الرحيم لحبيبي، تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة، ص209، ص210.
- ²⁵ جبرار جنيت، حدود السرد، ص77.
- ²⁶ عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث "مكونات السرد"، دار هومة، ط1، الجزائر، 2014، ص102.
- ²⁷ عبد الرحيم لحبيبي، تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة، ص223.
- ²⁸ بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق دراسة في إنتاج النص الرحلي، ص235.
- ²⁹ عبد الرحيم لحبيبي، تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة، ص210.
- ³⁰ شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص299.
- ³¹ ينظر بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق دراسة في إنتاج النص الرحلي، ص232.
- ³² ينظر عبد الرحيم لحبيبي، تغريبة العبدى المشهور بولد الحمرة، ص173.
- ³³ ينظر المصدر نفسه، ص147.
- ³⁴ المصدر نفسه، ص125، ص126.